الأثر الصوتي للحرف في التركيب القرآني

المدرس خالد شاكر

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي/ مركز الوزارة

المقدمة

إمتاز القرآن الكريم ببنائه الصوتي الذي لا يقترب في خصائصه بناءٌ أبداً، والذي نحاول استجلاؤه من إعجاز هو التأثير الصوتي للحرف في التركيب القرآني.

فالحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، وإنَّك لَتَجد لِتأليف اللفظة في السمع حُسنا ومزيّة على غيرها، وإنَّك تجد لبعض النغم والألوان حُسنا يتصور في النفس ويُدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه، كل ذلك لِوَجه يقع التأليف عليه(١).

وحركات اللسان لن تكون نطقاً ولا كلاماً وتأليفاً، ولا تعرف كثير من الألفاظ القرآنية المتنوعة الدلالة إلا عن طريق خاصيّة الصوت ودلالته، وفهْم دلالة ألفاظ القرآن الكريم ضمن سياقها لا يتم إلّا بعد التعرّف على أسلوب القرآن من تنغيم الكلام الموفي بالدلالة على الغرض والمعنى بدقّة(٢).

إنَّ نغمات الحروف القرآنية متلائمة بعضها مع البعض الآخر في الكلمة، والكلمات يتألف نغمها مع بعضها في الجمل، والجمل يتألف نغمها بعضها مع البعض الآخر في القول كلّه، والآية تتضافر ألفاظها في تنغيم هادئ إنْ كانت دلالتها على الوعد والخير والتبشير، وتتلاءم نغماتها قوية إنْ كانت دلالتها على الوعيد والعذاب والإنذار، فالمناسبة حاضرة بين الحرف ومعناه في جعل الحرف الأضعف والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأخفّ عملاً وصوتاً، وجعْل الحرف الأقوى والأشَد والأظهر والأجهر لِما هو أقوى وأعظم جِساً.

إنَّ صفة الصوت تؤدي دوراً مهماً في محاكاة المعنى، والقرآن غنيٌّ بأنْ يأتي على مستوى المفردة صوت أو أكثر يحاكي الحدث، وأنْ تأتي المفردات التي تحتوي أصواتاً موزّعة على أجزاء الجملة لتُصوّر في مجموعها الحدث تصويراً عاماً ويكون على مستوى الأداء الفني أعمق أثرا وبياناً للصورة.

فجاء البحث لبيان الحرف القرآني في خاصيته الصوتية وفي بيان مخارجه والعلاقة القائمة بين صوت الحرف وما يعطيك من دلالات وصفات توحي بالأثر السمعي وتكوين الصورة المرئية المستوحاة من كلام الله المعجز وكل هذا في نسق علمي يهدف إلى استجلاء العبارة القرآنية بتراكيبها وأساليبها والتي هي مدار البحث الذي توزع

على مباحث هي (الصيغة والدلالة، الصورة الصوتية، الصوت والموقف، صفات الحروف، البناء للمجهول، الخبر والاستفهام، المعنى والحركة، الحذف الصوتي والمعنى) ثم الخاتمة والنتائج وخُتِم البحث بِأهم المصادر والمراجع التي اعتمدتها ومن الله العون والتوفيق.

مبحث الصيغة والدلالة:

تلاحظ في الخطاب القرآني واستعماله صيغة **(يختصمون)** من قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾[٣].

وصيغة **(يخِصّمون)** من قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[٤].

تجد في الآية الأولى الإخبار عن غيب ذكره الله تعالى في صدر الآية، و**(إذ)** الظرفية- هنا- نقلت دلالة **(يختصمون)** إلى الماضي، ولو قيل: **(يخِصّمون)** مكان **(يختَصمون)** لَذهبت تلك الدلالة؛ لأنَّ **(يخِصّمون)** تحكي الحاضر من خلال بنائها الصوتي؛ لأنَّها تحكي خصومة آنيّة، وكذلك لو قيل: **(يختصمون)** مكان **(يخِصّمون)** لذهبت الدلالة الصوتية المحاكية لشدة النزاع والخصومة، ثم نستمع إلى نبر الآية في سورة يس فنَحسّ قوّة في النبر على أكثر كلمات الآية يتساوق مع لفظة **(يَخِصّمون)**.

فالنبر في صيغة **(يفعّل)** الدالة على المبالغة في الحدث أقوى من النبر في صيغة **(يتفعّل)** لتكرار التضعيف الصوتي في **(يفعّلون)** وقد جاءت اللفظة في الأولى لتدل على التنازع وجاءت في الثانية لِتَدل على مداهمة الصيحة لهم، وهم في حالة اضطراب شديد. فإنَّ شدّة الخصومة يرافقها انفعال شديد، وهذا يحول بين المرء وبين التعبير الدقيق، ويحول بينه وبين إتمام حروف بعض الكلمات في تعبيره، فكان **(يخِصّمون)** إذ حكت حالهم في ألفاظهم التي استعملوها في خصومتهم، فكان لانفعالهم هذا حكاية الألفاظ وقد سقطت بعض حروفها أو أُدغمت بعض حروفها في البعض الآخر من غير سبب صوتي يسوّغ الإدغام. وفي هذا تأكيد بأن الأصوات بتناغمها تعطي قيماً تعبيرية دلالية متنوعة في التركيب والتأليف[٥].

وتسمع أيُّها الصديق لفظة **(انفجرت)** من قوله تعالى: ﴿ **فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ** ﴾[٦] ولفظة **(انبجست)** من قوله تعالى: ﴿ **اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ** ﴾[٧] فحروف الأولى أقوى صوتاً من الثانية وهما تتقاربان في بدايتهما من حيث الانفجار والإنبجاس، وتختلفان في نهايتيهما، فتستمر لفظة **(انفَجرَت)** في قوتها بصعود، بينما تضعف لفظة **(انبجست)** في هبوط، في الراء المفخمة والسين المهموسة والجيم في الثانية أضعف منها في الأولى للتأثر بالمجاورة مع السين المهموسة, لأن اللسان يتهيأ للصوت اللاحق فيحصل التأثر، وقد يكون هذا التأثير ظاهراً في إقلاب **(نون)** انبجست إلى **(ميم)**, فيكون اللفظ **(امبجست)**, وإخفاء النون في **(انفجرت)** بعدم إظهار النون بوضوح.

فناسب في مقام تعداد النعم والتكريم والتشريف ذِكر حالة الانفجار دون الحالة الأُخرى، فذكر في كل مقام ما يقتضيه[٨].

ومن البناء اللغوي في الصيغة والتركيب قوله تعالى:﴿ **وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٥٣** ﴾[٩], وقوله تعالى: ﴿ **وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝١٨** ﴾[١٠], فخصَّت الأولى**(بأنجينا)** لموافقته لما بعده وهو **(فأنجيناه وأهله)** وبعده **(وأمطرنا)** وقوله: **(وأنزلَ)**, وكلّه على لفظ **(أفعلَ)** وخصّ **(نجيّنا)** بموافقته ما قبله **(وزينّا)** وبعده **(قيّضنا لهم)** وكلّه على لفظ **(فَعّلنا)**[١١].

وتأتي **(نجّى)** للتلبّث والتمهّل, وتأتي **(أنجى)** للإسراع فيها, فإنَّ **(أنجى)** أسرع من **(نجّى)** في التخليص من الشّدة والكرب. وإنَّ البناء اللغوي لِكُل منهما يدل على ذلك. مِن ذلك قوله تعالى:﴿ **وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ** ﴾[١٢] فَلمّا كانت النجاة من البحر لم تستغرق وقتاً طويلاً ولا مكثا استعمل **(أنجى)** ﴿ **وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۝٥٠** ﴾بخلاف البقاء مع آل فرعون فإنَّه استغرق وقتاً طويلاً ومكثا فاستعمل له **(نجّى)**. وفي سيدنا إبراهيم عليه السلام قوله تعالى:﴿ **فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۝٢٤** ﴾[١٣] فإنَّه لم يذق حرّها, وإنَّما كانت برداً وسلاماً عليه فاستعمل **(أنجاه)**[١٤] ومن التخفيف والتثقيل في الفعل قوله تعالى:﴿ **فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۝٩٧** ﴾[١٥] وذلك في السّد الذي صنعه ذو القرنين, فإنَّ الصعود على هذا السّد أيسر من إحداث ثقب فيه لِمرور

الجيش, فحذف من الحدث الخفيف التاء, فقال: **(فما اسطاعوا)** بخلاف الفعل الشاق والجهد الزائد الذي يبذل في عملية الحفر والنقب, فكان الفعل **(استطاعوا)** مع العمل الأكثر جهداً ثم إنَّه لمَّا كان لصعود على السّد يتطلب زمناً أقصر من إحداث النقب فيه حذف من الفعل وقصّر منه ليجانس النطق الزمني الذي يتطلب كل حدث(١٦).

والفعل نفسه يواجهنا في آيات سابقة في موقف سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر العبد الصالح, مرّة قبل أنْ يُنبئه بتأويل أفعاله الثلاثة: (خرْق السفينة وقتْل الغلام وهدْم الجدار), فكان التعبير بقوله تعالى: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾(١٧).

بهذه التاء المصورة لمعاناة موسى واستغرابه وتميّزه غيضا مِن أفعال الرجل غير المبرّرة في ظاهرها، أمْا وقد فسَّر له الرجل أفعاله وعَرّفه بعلّة كُل فعْل، وذهب كمد موسى وحيرته جاء التعبير بدون التاء: ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾(١٨) فجاء الفعل على التخفيف(١٩). إنَّ الجملة القرآنية لا يكتمل جرسها الصوتي إلاّ بالكلمات والحروف المتناغمة المعبّر بها، فإذا حذفت كلمة أو بدلت مكانها، أو تغيّرت حروفها فإنَّ الجرس والتنغيم يفقد تناسقه وإبداعه. من ذلك حكاية عن جزاء الكفار ووصف حالهم يوم القيامة, قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾(٢٠) فذُكرت كلمة **(الداعِ)** مرتين من غير(الياء) ولو ذكرت لأختل النظام في التركيب القرآني. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ ﴿٦٤﴾ ﴾(٢١) فلو مددنا ياء **(نبغي)** لأختل الوزن والتركيب. ولو عدلنا عن صيغة قياسية بتقدم كلمة على أخرى لأختل الإيقاع والتنغيم, وهذا نلاحظه في قوله تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾(٢٢).

فلو أردنا تقديم كلمة **(منّي)** فنجعلها سابقة لكلمة **(العظم)** فتكون: قال ربّ إنّي وهن مِنّي العظم لأختل التركيب؛ ذلك أنَّها تتوازن مع حرف التوكيد **(إنّي)** في صدر الآية. وهذا من بديع القرآن، فالنظم يراهن على الجانب الصوتي الذي يقوم أساسا على الإيقاع والتنغيم والتناسق الذي نشاهده في التجاور والتماثل السياقي للأصوات مخرجا وصفة، وموقعيّة هذه الأصوات في الإيحاء التصويري، فالصورة القرآنية تعبّر بالصوت

أو باللغة المصوّرة المقروءة وترسمها بالدقّة والروعة والجرس العميق، والصوت المتنسّق المسافات الدقيق النسب والأبعاد المتناسق مع جمال الصورة.

وإنَّ طريقة النظم القرآني تجري على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، وفي التمكين في المعنى بحسّ الكلمة وصفتها. ويعد التنغيم إشعاعا للنظم الخاص في كل موضع من كتاب الله، فهو ينتشر في السور القرآنية.

مبحث الصورة الصوتية

النظم القرآني في جملته يبدو فيه الجمال الإيقاعي وحلاوة النغم, فهو نغم داخلي يتخلل الكلام كله, تنتظم جميع أجزائه في كلماته وحروفه ومراعاة التناسب بين نوع النغمة وصفاتها, والفكرة التي تعبّر عنها الآيات. ولعل جمال النغمة هو السبب في العدول في كثير من الآيات عن طرائق التركيب والتأليف إلى صياغة خاصة. فالجمال الصوتي هو أول شيء أحسّته الآذان العربية أيام نزول القرآن, ولم تكن عهدت مثله فيما عرفتْ من منثور الكلام. فرأوا حروفه في كلماته, وكلماته في جمله ألحاناً لغوية عذبة, كأنَّها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة, قراءتها في توقيعها, فلم يفتهم هذا المعنى وإنَّه أمرٌ لا قِبَلَ لهم به, وكان ذلك أبيَن في عجزهم(٢٣).

فتميّز القرآن الكريم في صوره وصوتياته, فالصورة تعبّر بالصوت أو بالغة المصورة المقروءة وترسمها بالدقة والروعة والجرس العميق والصوت المتسق المسافات.

إنَّ أداء الكلمة أو الجملة القرآنية له موازين وضوابط لفظية لا ينبغي تجاوزها, فللحروف صفات ومدّات ومخارج وحركات, وللتركيب صفات ومدّات ومخارج وحركات تنسقها قواعد وقوانين ثابتة.

ربما كان لتقسيم القرآن إلى سور ثم آيات مختلفة بالطول والإيقاع والفاصلة أثره الواضح وأهميته في التلوين الجرسي المتعّدد.

الأداء الصوتي له أهميته بما فيه من الوقفات الصوتية والحركات والذبذبات, في تكوين التناسب للصوت, وقد تصوّر الحركة بالصوت كما في قوله تعالى: ﴿حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ ٥١﴾(٢٤).

فالفعل **(حصحص)** الذي بمعنى توضح وتبيّن بالإمكان أنْ نشمّ رائحة المعنى ومعالم الصورة من صوته[٢٥], وفي قوله تعالى:﴿ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ﴾[٢٦].

فالفعل **(يترقّب)** يرسم هيئة (موسى) عليه السلام الحذر المتلفّت في المدينة التي يشيع فيها لأمن والاطمئنان. والمشهد الذي يصور انقلاب سحرة فرعون بعد رؤية البرهان الإلهي في المعجزة قوله تعالى:﴿ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[٢٧] فالمشهد يصوّر الشعور القوي الذي ترسَّخ في أعماقهم وسجدوا للقوة العليا, وكأنَّ الشعور الجديد قد أُلقي بهم على الأرض ساجدين, مع بناء الفعل بصيغة المجهول **(أُلقي)** لتصوير القوة الخفيّة الحقيقية بالعبادة والإنابة إليها.

ومن تصوير الحركة باللفظ قوله تعالى:﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾[٢٨] وذلك في سعْي الرجل المؤمن ليدافع عن موسى عليه السلام فالسرعة حركة مطلوبة في هذا الموقف؛ لانسجامها مع الدافع الشعوري القوي فيه.

إنَّ أصوات الحروف إنَّما تتنزل منزلة النبرات الإيقاعية المرسلة, فلا بُدّ لها مع ذلك من نوع من التركيب وجهة من التأليف حتى يمازج بعضها بعضاً, ويتألف منها شيء مع شيء, فتتداخل خواصّها وتجتمع صفاتها, ويكوّن منها اللحن الإيقاعي, ولا يكوّن إلّا من التركيب الصوتي الذي يُثير بعضهُ بعضاً على نِسب معلومة ترجع إلى درجة الصوت ومخارجه وأبعاده.

التناسب الصوتي في التأليف والتركيب القرآني معجزة جرسيّة, مثل ما كان في بيانه. والظاهرة الصوتية التي تنشأ من تآلف الحروف والكلمات والفواصل تبدو واضحة في كل آية ومقطع وسورة, والأسرار الجرسيّة القرآنية متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا يلائم الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه من العجب مذهب، والجرس للفاصلة– مثلا– يتفق مع الموضوع والجو والمشهد الذي يوحي بأهمية تأثير الصوت المتناسق والجملة الصوتية في النفس والوجدان.

إنَّ القرآن الكريم وإنْ أكثَرَ من فاصلة الميم والنون المسبوقتين بالمدود فإنَّ فواصل أخرى في حروف مدّ ومصمتة قامت بتوزيع جماليات متناسقة مع جو السورة وشاهدها[٢٩].

إنَّ من خصائص نظم القرآن المسحة اللفظية التي تتجلى في اتساق الألفاظ وائتلافها في الحركات والسكنات اتساقا وائتلافا رائعا يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أنْ يصل إليها أيُّ كلام آخر. فنظم القرآن ونغمه ينبعث من كلماته وحروفه وأسلوبه، فحروفه متآخية في كلماته لها إيقاع ونغم تهتز لها المشاعر، وتسكن عندها فتطمئن النفوس. والكلمات في تآخيها في العبارات تنتج إيقاعا ونغما يختص به القرآن وحده.

أنت تلاحظ هذا الصنع البديع في عدول النص القرآني عن الترتيب إلى حسن الجوار في قوله تعالى: ﴿ **لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ** ﴾[٣٠] فلو جاء القول: **(لئن بسطت يدك اليّ)** لحصل فيها العيب المسمى سوء الجوار الموجب للتركيب ثقلا يعسر النطق به بعض العسر، فعدل عن الترتيب لأجل ذلك إلى حسن الجوار، وإنَّما كان سوء الجوار يحصل على الترتيب لتوالي ثلاثة أحرف متقاربات المخارج وهي: الطاء والتاء والياء، عند قوله: **(لئن بسطت اليّ يدك)**، وإذا جاء النظم على ما جاء عليه، أمن هذا المحظور.

وللصوت أهميته في مراعاة المواقف المصورة، إذ يظهر التباين في التشكيل الصوتي بين الحديث عن المؤمنين وبين الحديث عن الكافرين مثلا[٣١]، تجد في الحديث عن المؤمنين المدّات في فواصل الآيات مع الحروف السهلة ذات الوقع الخفيف على الأذن لتعطي الكلام وقعا لطيفاً مناسباً للتأثير، وفي الغضب والسخط تجد الحروف قوية الوقْع شديدة التأثير مثل: الميم الساكنة.

□

مبحث الصوت والموقف

لقد وُظفت طبيعة الأصوات لتجسيم المواقف، ومن يقرأ الآيات يتوصل إلى هذه النتيجة، فالمواقف في القرآن هي التي تحدد طبيعة الحروف والحركات، فالأصوات الشديدة تجسم المعاني المطلوبة، والأصوات الخفيفة تجسم المعاني المطلوبة، وقد شارك الصوت الفكرة مشاركة فعّالة معبّرة عن الانسجام بين الشكل والمضمون.

ومن الربط بين قوة الحرف والموقف المصوّر قال تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ ﴾[٣٢] فجمعت هذه الآية حرف الميم ونثرت بين كلمات الآية في مقطعين، حتى يبدو المقطع وكأنه مشكّل من ميمات، والميم وحده حرف ثقيل مضغوط يشد عضلات الفم كلها حتى يؤدي على تهيئة صوت، فكيف به إذا تكرر، ثم كيف يكون ميزانه من الثقل حين يتكرر بهذه الكثرة المتلاحقة، وليس هذا النغم المجلجل المتتابع من هذه الميمات إلّا أداة يقتضيها المقام من دواعي القوة التي تحيط بالموقف وتظاهره، فقد ربط بين قوة الميم والموقف بعد الحديث عن الطوفان واستواء السفينة[٣٣].

وأنت تلاحظ حرف القاف الذي يتصف بالجهر والشدة والاستعلاء والانفتاح والقلقلة، له نغم قرآني منسجم ومتكامل، له مطلع وله قرار، ومطلعه يتلاقى مع قرارِه، يخرج منطلقا حتى إذا وصل إلى نهايتهِ اطمئن وسكن، وهذا ما تجده الأذن في هذا الصوت، فتأمل سورة **(ق)** وهي مبنية على كلمة ذلك الحرف[٣٤].

والمناسبة بين هذا الحرف المفرد (ق) المبني على الشدّة والجهد ومعاني هذه السورة التي مُلئت بالحروف القافية، فناسب هذا الحرف الغرض من السورة، إذْ أنَّ نزولها كان في مواجهة المشركين وتقرير الوعيد لهم، وإثبات الحساب والموت والبعث وما يحفّ ذلك من مكروه يفرّون منه ويهربون.

- **الجهر**: هي صفة مرتبطة بذبذبة الوترين الصوتيين فهذه الذبذبة هي التي تولّد صفة الجهر.
- **الشدّة**: هي امتناع الصوت من أنْ يجري في الحرف وهو عكس صفة الرخو الذي يجري فيه الصوت.

- **الاستعلاء:** هي صفة من صفات القوة وهو أنْ تتصعّد ف الحنك الأعلى أمّا بإطباق وأمّا بغير إطباق أي باستعلاء فقط ويكون مع حروف: الخاء والغين والقاف.
- **الانفتاح:** هي صفة عكس الإطباق وحروفه هي جميع الحروف ماعدا الحروف الأربعة المطبقة (ص، ض، ط، ظ) فعند النطق بالحروف المنفتحة لا تطبق لشيء منهنّ لسانك.
- **القلقلة:** هي صفة لحروف الطاء والقاف والياء والجيم والدال حين تكون ساكنه وهي صوت يشبه النبرة عند الوقف على هذه الأحرف أو صوت زائد يحدث عند إتمام النطق.

وتأمل حرف (الهاء) في سورة الشمس، إنَّها سورة كلها إبداع تبدأ بطواعية حرف الهاء في مؤخرة كل فاصلة من فواصل الآي، بما حمله هذا الحرف الحلقي الخافت من همس وترقيق و رخاوة، وهو ما جعل تركيبة السورة مميزة، وزاد الأمر طراوة مجاورة هذا الحرف للحروف المدّية التي أطالت من عمره كما ضاهته كمّاً وحسناً الحروف الشفويّة ذات المنطق السهل والجرس الحسن.

لقد ركّبت ألفاظ السورة بكيفيّة تهز النفس، فزيادة على الانسجام بين أصواتها أوحت بمعانٍ بعيدة تجعل السامع يجلي بصره ويمعن فكره، فيتأمل ذلك الخلق والنظام البديعين المسيرين للكون.

والأمر ملاحظ في سورة **(ص)** من وجود هذا الحرف وكثرة دورانه في مفرداتها، ومناسبة بدأ السورة بهذا الحرف المفرد، وما اشتملت عليه السورة من معاني العداوة والخصومات المتعددة.

فالمناسبة قائمةٌ بين الحرف وشكله الإيحائي ومواقع الدلالة المقصودة في السورة, وهي مستوحاة من تلك الصيغ والتراكيب التي تلت الحروف والتي أخذ بعضها بحجز بعض, وما يحمله الحرف مِن معانٍ إيحائية مضافة في الاستعمال القرآني المبدع في الإيقاع والجرس والتكرير والتشديد والتنغيم إذ بلغ النص القرآني الذروة في التأثير(٣٥).

وناسبت الحروف الجهريّة مقام الوعيد الذي حملته سورة الماعون وعبّرت الحروف الشديدة بقوتها عن ذلك أيضا, وظهر النبر على مقاطع كثيرة منها المواضع: **(ألّذين، الّذي، المصليّن، يكذّب)** وأضفى الحرفان الغُنيّان (النون والميم) رنّة مميزة على

الآيات إذْ شارك صوت الميم صوت الراء في بدايات الآي، ثم أفسح له المجال لتمتلئ السورة بالنغمات الجميلة المتراوحة بين الصعود والهبوط، وزادها جمالا مدّ الراء مدّا زائداً في لفظة **(يراءون)**.

وفي سورة العاديات لم يكن النبر متناسبا مع كثرة عدد الآيات قويّا على رؤوس فواصلها، ذلك إنَّ هذه الرؤوس تمثلت في حروف همسيّة لا يسمع الضغط عليها بوضوح، غير أنَّ مجرى النبر تغيّر فصعدت نغمته ابتداء من الآية السادسة حين صارت الفواصل مختومة بحروف شديدة، ثم حرف متوسط الشدّة وهو الراء. كما زاد لحن السورة عذوبة وصف حدّة المعارك والخيول الضاربة بأقدامها في الأرض، والذي أبرزته الألفات الطويلة المتعاقبة في **(العاديات، الموريات، المغيرات)**.

وكذا التنوين بضمتين **(كنود، شهيد، شديد)** والتي سبقها التنوين بفتحتين في **(نقعا، جمعا)** لتظهر بعد ذلك الكسرة بقوة ظلها، فبدلا من رؤية كسرتين ظهرت واحدة فقط، وهو ما يدل على رصانة صوتها حقا، غير أنَّ ظهور الضمّتين معا كان الأقوى بدون نزاع، فقد بدت الغنّة في تنوينهما أكثر وضوحاً.

وتنوعت أواخر الفواصل في سورة الغاشية بين التاء المربوطة في أسماء نكرة تدل على اسم الفاعل تارة: **(عاملة، ناصبة، حامية)**، واسم المفعول تارة أخرى: **(مرفوعة، موضوعة، مبثوثة)**.

والتاء المفتوحة في آخر الأفعال المبنية للمجهول: **(رُفعت، نُصبت، سُطحت)**، وكانت العودة بعد ذلك إلى رسم الفاعل المختوم بحرف الراء: **(مذّكر، مسيطر)**، ثم الفعل المبني للمعلوم واسم التفضيل، والعودة أخيرا إلى المصادر.

إنَّ هذا الإبداع الذي تضمنته سورة الغاشية لهوَ في الحقيقة تناسق عجيب متناه في الدقة والعظمة، إذا رُكّبت فيه مقاطع الكلمات على شكل مشتقات لجذور عربية وتصاعدت هذه المقاطع راسمة نغمات تقريريّة تعجبيّة، مبينة أنّ عظمة الخالق تكمن فيما خلق من أكوان وما أنزل من قرآن.

مبحث صفات الحروف

تكاد تطرد آراء الباحثين على إنَّ من الألفاظ ما هو مصوّر لِمعناه بجرس حروفهِ ولعل أهم ما يتبادر إلى الذهن كمؤثر صوتي هو اختلاف المفردات بصوت واحد يكون مهموساً في أحدهما مجهوراً في أخرى، لذلك نرى القرآن الكريم يعدل عن إحداهما إلى الأخرى بحسب السياق أو الصورة التي تُرسم كما في استخدامهِ تعالى لكلمة **نضخ** بدلاً من **(نَضَحَ)** وكلاهما يعني خروج الماء. فقال تعالى:﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴾[٣٦].

فالنضخ والنضح واحد إلّا إنَّ الأول أكثر وهذه من فوائد الإبدال الصوتي[٣٧]. فلفظة تنضخ التي تعبّر عن فوران السائل في قوّةٍ وعنف، إذا قورِنَت بنظيرتها **(تنضح)** التي تدل على تسرّب السائل في هدوء وبُطء، فسوف يتبيّن لنا أنَّ صوت الخاء له دخل في دلالتها[٣٨]؛ لِأنَّ الأصوات الفخمة القويّة تؤاتي المواقف القويّة[٣٩] وهذا الأسلوب كثير في كلام العرب، إذْ يتغيّر المعنى بتغيّر صوت من أصوات لفظِهِ كما ذكَرَ ابن جني في التفرقة بين **(خضم)** و**(قضم)** إذْ يستخدم الصوت الأقوى غالبا للدلالة على المعنى الأقوى[٤٠].

إنَّ القيمة الصوتيّة للحرف لا تتحد في جرسهِ فقط بل حتى باقترانه مع الأصوات المجاورة في اللفظة كما في قولِهِ تعالى:﴿ **ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾** ﴾[٤١].

فهذه اللفظة المُعَبّرة عن الشدّة والقوّة إنّما تمّ لها ذلك من طبيعة أصواتها في «**العين لا تأتلف مع الهاء إلّا إذا كانتا مفصولتين مثل: (هرعَ) و(هلعَ) أو تقدمت العين على الهاء كما في الآية الكريمة فلو لم تتقدم العين على الهاء لم تأتلفا**»[٤٢] وذلك لثقلهما معاً مما يناسب سياق السورة الدال على القوّة والشّدّة.

وفي القرآن «**كلمات شديدة الإيحاء قوية البعث لما تتضمنه من المعاني وهناك عدد كبير من ألفاظ تصور بحروفها...**»[٤٣]، قال تعالى:﴿ **يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾** ﴾[٤٤].

فالفراش هو الجراد الذي ينفرش ويركب بعضه بعضاً فإذا ثار لم يتّجه إلى جهة واحدة

بل يتطاير من كل جانب[٤٥] «**فهو مبثوث وقد انتهت كلمة الفراش وكلمة المنفوش بالشين كما انتهت كلمة المبثوث بالثاء، والشين والثاء من حروف التفشي والانتشار**»[٤٦].

نلاحظ قوله تعالى: ﴿ **وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾** ﴾[٤٧] تجد الإعجاز القرآني في اختيار الألفاظ **لمواضعها ورسْم الصورة الموحية** «**فهي ملائمة تماما لرقّة الصبح ويبدو ذلك في همْس التاء والسين وذلاقة النون والفاء فاللفظة موحية بدلالتها وجرسها وظلها على هذه اليقظة التي شملت الطبيعة...**»[٤٨]، وقديما لاحظَ ابن جني أنَّ اختلاف الحرف الواحد في اللفظتين أو الحرفين... يؤدي إلى اختلاف دقيق في المعنى المراد من اللفظ، وإنَّ دقّة المعنى تتفق مع جرس الحرف المختار فكأنّ هناك اختيارا مقصودا للصوت ليؤدي المعنى المغاير لِما يؤديه الصوت الآخر[٤٩].

مبحث البناء للمجهول

وأنت تلاحظ سورة التكوير وقد بُنيت أفعالها للمجهول، وطُوي ذكر الفاعل فيها وهي: **(كُورت، سُيرت، عُطلت، حُشرت، سُجّرت، زُوجت، سُئلت، قُتلت، نُشرت، كُشطت، سُعرت، أُزلفت)** والفاعل الحقيقي فيها هو الله تعالى بقدرته، ولكن الخصائص الأسلوبية لهذا النص لا تتعلق بمحدث هذه الأفعال وموجدها، وإنَّما العناية متجهة نحو الهدف، ولفت الأنظار حوله، والعناية به، لتكون العبرة أشدّ، واليقظة أعظم.

وتوجيه قراءة **(نُتّخذَ)** بالبناء للمجهول من قوله تعالى: ﴿ **قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ﴿١٨﴾** ﴾[٥٠].

فالنظرة إلى النص بهيئته التي هو عليها والتخلص مما قد يحكم هذه النظرة من تصورات قبليّة بطبيعة مكوناته، أقول: إنَّ هذا يمنحنا الفرصة في النظر إلى النص في هذه القراءة **(أنْ نُتّخذ)** بالبناء للمفعول على إنَّه تضمّن مفعولا واحدا ليس غير. أمّا المفعول الآخر فلم يعد له وجود، وانتقل إلى حالة أخرى اكتسب فيها حكما آخر اقترب به من الفاعل وصار بمنزلة العمد التي من صفاتها اقتضاء مسند أو موصوف.

وتشير الآية الكريمة بقراءة البناء للمجهول إلى إنَّ التركيز هنا على الحدث في هذه القضية الفعلية، فالاتخاذ– هنا– قوام النسبة في هذا البناء، أمّا ما بُنيَ عليه الفعل فلم يعد سوى متعلق هامشي فأريد بذلك التعبير عن تحقُق الاتخاذ لا التعبير عمّن صدر عنه.

وقد يُسند الفعل لغير فاعلِهِ الحقيقي تأكيدا على هذه الظاهرة، وكأنَّ الفعل متلبس بالفاعل، وكأنّ الفاعل غير الحقيقي قد توصل أليه ففعلهُ، وإنْ لم يكن لهذا الفاعل حول أو طول، أو ليس من شأنه ذلك بل المحدث غيره في كل من قوله تعالى: ﴿ **ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١** ﴾[٥١] وقوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠** ﴾[٥٢] وقوله تعالى: ﴿ **إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١** ﴾[٥٣] والواقع إنَّما أضيف لها الفعل لتضخيم الحدث، وليتجه التفكير نحوه، فالفاعل الحقيقي هو غير ما أسند إليه الفعل. وهذا «**يدل على التلقائية التي يكون بها الكون مُهيئا للحدث الخطير، وإنَّ الكائنات مسخرة بقوة لذلك الحدث، فما تحتاج فيها إلى أمر، ولا إلى فاعل....، وفيه كذلك تركيز الانتباه في الحدث ذاته، وحصر الوعي فيه، فلا يتوزع إلى غيره**»[٥٤].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤** ﴾[٥٥] قد يكون المراد لفت النظر نحو الحدث بما له من طواعية وتلقائية مستغنيا فيه عن ذكر محدث وهو الله سبحانه وتعالى، فالأرض راجفة وهي مرجوفة، والرادفة التابعة وهي مردوفة، وهكذا القول في الحافرة والخاسرة والساهرة. والتلقائية– هنا– تغني عن ذكر المحدّث جل شأنه بما أودع سبحانه في الأرض من قوة التسخير لما يريد لها، وهنا أيضا مباغته لا يدري معها الإنسان يوم القيامة، وتركيز الانتباه في أخْذ الرجفة بحركة تلقائية ذاتية صائرة إلى ما سُخّرت له.

مبحث المعنى والحركة

وخير ما وُجّهت قراءة النصب **(شهرَ رمضانَ)** من قوله تعالى: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ** ﴾[٥٦].

إنَّه على الإغراء بسبب ما سبقه من فرض بالصوم وما أعقبه من أوصاف للشهر الكريم تغري بأداء هذه الفريضة فضلا عن إنَّ جملة الإغراء في الواقع ليست بها حاجة إلى تقدير عامل، فالنصب فيها يمثل قيمة دلالية صوتية يمكن الاستناد إليها للإفصاح عن هذا المعنى: الإغراء، والفتحة- هنا- هي عنصر تحويلي نقل المعنى من الإخبار- في ضم كلمة شهر- إلى الإغراء بنصبها(٥٧).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴿٤﴾ ﴾(٥٨) نصب **(حمّالة)** على إرادة الذم، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾(٥٩) على إرادة المدح، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ ﴿١٧٧﴾ ﴾(٦٠) بالقطع على إرادة المدح. وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾(٦١) وقد خولف فيها طريق الإعراب في الظاهر من جهة عطف ما ليس بمجزوم على المجزوم، ليُعدَل عن الظاهر لإفادة خذلانهم على الدوام في كل حال، ولو عُطف الفعل على ما تقدّم على قاعدة العربية الظاهرة لِما أفاد سوى الإخبار بأنَّ العدو لا ينتصر في الحال، وفي زمن المقاتلة ووقت التولية، فبشارة المسلمين بخذلان عدوهم في الحال والاستقبال(٦٢).

وضمن سياق الكلام عن الحركة وما تؤدّيه من معنى هنالك العدول عن الحركات لإفادة المعنى كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ ﴾(٦٣) فعدل في التعبير من الكسر إلى أقوى الحركات وهي الضمّة للإشارة إلى ندرة مثل هذا النسيان وقوّته، فناسب بين قوة النسيان وقوة التعبير، وندرة مثل هذا النسيان، وندرة مثل هذه التعبير(٦٤) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿١٠﴾ ﴾(٦٥) فجاء بالضمّة التي هي أثقل الحركات لأنَّها لا تنطق إلّا بانضمام الشفتين وارتفاعهما، ولا تحتاج الكسرة ولا الفتحة إلى ذلك، للدلالة على ثقل هذا العهد وعظمته، ثم إنَّ الضمّة ينطق معها لفظ الجلالة بتفخيم اللام بخلاف الكسرة، فإنّها ينطق معها لفظ الجلالة بترقيق اللام، فجاء بالضمّ ليتفخم اللفظ بلفظ الجلالة إشارة إلى تفخيم العهد، فناسب بين تفخيم الصوت وتفخيم العهد(٦٦).

مبحث الخبر والاستفهام

إنَّ العرب تستفهم بالتوبيخ ولا تستفهم، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[٦٧] ووقف الفراء على لفظ الخبر المراد منه التوبيخ, وعلى لفظ الاستفهام المراد منه التوبيخ فقال: «والعرب تستفهم بالتوبيخ ولا تستفهم. فيقولون: ذهَبْتَ ففعلتَ وفعلت ويقولون: أذهَبْتَ ففعلت وفعلت، وكلٌ صواب»[٦٨].

ومن لفظ الخبر على إرادة معنى الاستفهام على جهة الإنكار قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾[٦٩] والمعنى: أوَ تلكَ نعمةٌ، والسياق يؤكد هذا المعنى، فقد جاءت هذه الآية في سياق ردّ موسى عليه السلام على قول فرعون ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾، فأنكر موسى عليه السلام امتنانه عليه وأبطله من أصله، وبيّن أنّ حقيقة إنعامه عليه تعبّد بني إسرائيل، لِأنّ تعبيدهم وتعذيبهم وتهديدهم بذبح أبنائهم هو السبب في وصوله إليه تربيته عنده، فكيف يمتنّ عليه باستعباد قومه، وهو استفهام إنكاري فيه من التهكم والسخرية ما فيه، وإنّما حذف همزة الاستفهام حفظا للمودة وتخفيفا لحدّة الردّ، ووفاء للرعاية التي وجدها في بيت فرعون. قال الزجاج: «**أخرجه المفسرون على جهة الإنكار أنْ تكون تلك نعمة، كأنّه قال: فأيّ نعمة لكَ عليّ في أنْ عبّدْتَ بني إسرائيل، واللفظ لفظ خبر**»[٧٠].

ومن لفظ الخبر وإرادة معنى الاستفهام قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾[٧١] بالهمزة المطوّلة على الاستفهام، وبالمدّ على لفظ الخبر.

وإثبات القرّاء للألف المبدلة من الهمزة الثانية. قال أبو منصور الأزهر: «**مَنْ قرأ (آمنت) بوزن (عامنتم) فلفظه لفظ الخبر ومعناه للاستفهام، إلاّ إنّه حذف إحدى الهمزتين. ومن قرأ: (أآمنتم) بوزن (أعامنتم)، بهمزة مطولة فهو استفهام جعل إحدى الهمزتين ألفا مطوّلة فرارا من الجمع بين الهمزتين. وَمَنْ قرأ: (أآمنتم)، بهمزتين، الثانية ممدودة، فأنّهُ جعل الهمزة الثانية ألفا ممدودة كراهية الجمع بين الهمزتين أيضا وكل ذلك جائز**»[٧٢].

ومِنَ الخبر والاستفهام قوله تعالى: ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[٧٣]، وإرادة معنى التوبيخ بألف واحدة بغير استفهام، ومع الاستفهام: أأن كان ذا مال وبنين «**فأنّه وبّخه ألإن كان ذا مال وبنين تطيعه؟ وان شئت قلت: ألآن كان ذا مال وبنين، إذا تُليت عليه آياتنا قال: أساطير الأولين. وكلٌّ حسن**»[٧٤].

ومن الاستفهام المراد به الأمر قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾[٧٥]، ومعناه الأمر: أسلموا. وقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[٧٦]، ومعناه: انتهوا. وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴿١١﴾ ﴾[٧٧] ففسّر: هل أدلكم بالأمر؟

مبحث الحذف الصوتي والمعنى

مِن الحذف الصوتي للحرف في التركيب القرآني قوله تعالى: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴿٦٤﴾ ﴾[٧٨] بحذف الياء من الفعل، فنسيان الحوت ليس هو ما يبغيه موسى عليه السلام على وجه الحقيقة، وإنّما يبغي الشخص الذي يريد موسى أنْ يتعلم منه، فجاء الحذف إشارة إلى عدم إرادة هذا الفعل على وجه التمام. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴿٤٦﴾ ﴾[٧٩] فجاء حذف الياء **(تسألنِ)** إشارة إلى النهي عن أصل الحدث.

ومن الحذف قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴿١٠﴾ ﴾[٨٠]، فحذف الياء من **(عبادِ)**؛ لأنّه خصص الذين آمنوا بطلب التقوى فضيّق دائرة المؤمنين، وذلك إنّ عموم المؤمنين أكثر من المتقين، وإنّه لمّا قلل العباد حذف الضمير.

وهذا ما نلاحظه أيضا من أنّ فعل الأمر مبني على الحذف مطلقا، والحذف هنا لمدرك صوتي هو إنّ المتكلم يتعجّل اللفظ به لتحقيق مطلبه، فلزمه الحذف الذي لا نجده في صيغ الماضي والمضارع.

وإنّ حذف النون من الأفعال الخمسة جزما ونصبا بسبب تعدّد المقاطع الصوتية ونوعها.فالفعل **(يكتبون)** مثلاً في أربعة مقاطع صوتية، فإذا ما تقدّمته (لم) أو

(لن) تجاوزت مقاطع الفعل الأربعة، فحذف ما كان في آخره تخفيفا، والعرب لا يحذفون إذا ما تقدّم الفعل (ما)؛ لأنّها غير مختصّة فتخفّ لكثرتها، ولكنهم يحذفون مع (لا) الناهية؛ لأنّه على ما يبدو داخل في باب الطلب الذي يتعجّلون بلفظه.

الخاتمة والنتائج

إنّ حسن وقع الحروف في الحركات والسكنات والمدّات والغُنّات في التركيب القرآني يسترعي الانتباه، ويستلهم كل نفس إذْ يكون الإيقاع أول ما تحسّه الأذن، وتبصره العيون لما لذلك الاتساق من رصف وتنظيم للحروف وما في جريانها مع النفس من سهولة وعذوبة، فهذا حرف يهجو وذاك يهمس، وهذا يبدل وذاك يُدغم، وهذا يُلان وذاك يشدّ، وهذا يتكرر وذاك يستعلي أو يستفل. كل هذا يشكل نظاما صوتيا بديعاً، وتركيباً أسلوبياً معجزاً أقرّ به من لم يؤمن بالقرآن قبل الذين آمنوا به، وأنت تلاحظ لفظة **(تلظى)**[٨١] التي تجاورت فيها الحروف الجهريّة المرتبة مخرجياً مع ما لكل حرف من صفات أحادية وحركة التشديد الموجودة على حرف الظاء اللثوي، تبين أنّ الكلمة تحمل كل معاني القوّة والالتهاب في النار، أضف إلى ذلك انتهاء اللفظة بالألف المقصورة الذي حافظ على اتساق الأداء في تركيبة السورة، وأوحى بالمعنى المقصود.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾[٨٢] تأمل ما ضمّته هذه الآيات من ممدود: **(يا، ها، جعي، إلى، را، خلي، تي)**.

وما ضمّته من تشديد: **(أيّتها، النّفس، المطمئنّة، ربّك، مرضيّة، جنّتي)**، وما ضمّته من حركات الكسر: **(جِعي، ربِّك، خِلي، فِي، دِي، جنّتِي)**، ومن ثم نتصور كيف امتزج الحزن بالرضا والطمأنينة، وكيف رسمت كل هذه المدود آهات الحزن, وكيف أدّت النونات بغُنّتها لحن الأمل في رضا الله عز وجل، وكيف كسرت الياء القصيرة الحزن، وفتحت أبواب الثناء.

وحيثما تلوت القرآن أحسست بهذا النغم الداخلي في سياقها، يبرز بروزا واضحا في كثير من السور، والفواصل، ومواضع التصوير، وهو ملحوظ في بناء النظم القرآني، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ

﴿ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ ﴾[٨٣]، فهذه الفواصل متساوية في الوزن تقريباً، متحدة في حروف الفاصلة، ذات إيقاع متّحد تبعا لهذا مع تآلف الحروف في الكلمات وتناسق الكلمات في الجمل، فاللفظة تأتي لتؤدي معنى له في السياق وتؤدي تناسبا في التنغيم واتزان في الآيات والفواصل.

ويتلاقى جرس الحرف مع الإيحاء والمدلول، فالترتيب المتقارب المنسجم يؤدي إلى خاصيّة فريدة في القرآن مؤكدا إعجازه، فالحروف (الباء والتاء والثاء) مثلاً يجعل تقاربها ألمخرجي تقارباً في النسق والشكل والجرس.

وحروف (الحاء والخاء والدال والذال والعين والغين) يظهر الإيقاع والنغم في صفات الحروف, فهذه صفة استعلائية, وتلك صفيرية وأخرى فيها تفش, ومطبقة مجهورة ومهموسة, فصوت الحرف القرآني ينزل منزلة النغمة الإيقاعية المحدثة الوقع الجميل في النفوس المؤمنة, وفق التناسب والانسجام بين آي الذكر الحكيم, في المفردة والجملة والآية مستقلة ومتصلة.

ملخص البحث

جاء البحث لبيان الحرف القرآني في خاصيته الصوتية وفي بيان مخارجه, والعلاقة القائمة بين صوت الحرف وما يعطيك من دلالات وصفات توحي بالأثر السمعي وتكوين الصورة المرئية المستوحاة من كلام الله المعجز وكل هذا في نسق علمي يهدف إلى استجلاء العبارة القرآنية بتراكيبها وأساليبها والتي هي مدار البحث الذي توزع على مباحث هي: (الصيغة والدلالة، الصورة الصوتية، الصوت والموقف، صفات الحروف، البناء للمجهول، الخبر والاستفهام، المعنى والحركة، الحذف الصوتي والمعنى) ثم الخاتمة والنتائج. وخُتِم البحث بِأهم المصادر والمراجع التي اعتمدتها ومن الله العون والتوفيق.

Abstract:

The research has been written to clarify the Quran letter in it's sound property. And to clarify it's sounds, as well as the relationship between the sound of a letter and the allegation it gives that suggest impact audio and composition of the visual image inspired by the miraculous speech of Allah. All that contains a scientific structure that aims to illustrate the composition of the Quranic phrase formula: (the significance, the audio image, the sound and attitude, qualities of character, the passive voice, the predicate and the interrogative, the meaning and punctuations, removal of voice and meaning). In addition to the closure and the results, the research had been ended with the most important resources and references that I had used with the help of Allah.

الهوامش

(١) ينظر: سر الفصاحة ٥٥.

(٢) ينظر: البيان والتبيين ١/٢٠، ٧٩.

(٣) آل عمران: ٤٤.

(٤) يس: ٤٩.

(٥) ينظر: معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٧٩، الكشاف ٣/٢٨٨، اللغة العربية معناها ومبناها ١٧٢، التنغيم اللغوي في القرآن الكريم ١٠٤.

(٦) البقرة: ٦٠.

(٧) الأعراف: ١٦٠.

(٨) بلاغة الكلمة ٩٨.

(٩) النمل: ٥٣.

(١٠) فصلت: ١٨.

(١١) أسرار التكرار ١٥٧.

(١٢) البقرة: ٤٩.

(١٣) العنكبوت: ٢٤.

(١٤) تفسير البيضاوي ١٩٢/٤, بلاغة الكلمة ٥٧-٥٨.

(١٥) الكهف: ٩٧.

(١٦) وذكر الكرماني (أسرار التكرار ١٣٤) انّه اختار التخفيف في الأول لأن مفعوله حرف وفعل وفاعل ومفعول (أن يظهروه) فأختار فيه الحذف, والثاني مفعوله اسم واحد, وهو قوله (نقبا). وبلاغة الكلمة ١٠.

(١٧) الكهف: ٧٨.

(١٨) الكهف: ٨٢.

(١٩) الكشاف ٧٤٠/٢، بلاغة الكلمة ١٠-١١.

(٢٠) القمر: ٦-٨.

(٢١) الكهف: ٦٤.

(٢٢) مريم: ٢-٤.

(٢٣) ينظر: إعجاز القرآن للرافعي ٢١٤, مناهل العرفان ٢٠٦/٢.

(٢٤) يوسف: ٥١.

(٢٥) معاني القرآن للفراء ٤٨/٢.

(٢٦) القصص: ١٨.

(٢٧) الأعراف: ١٢٠.

(٢٨) يس: ٢٠، ومن أمثلة تصوير الحركة باللفظ القرآني قوله تعالى: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ التوبة: ٣٨, وقوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ آل عمران: ١٨٥, وقوله ﴿فَدَمْدَمَ﴾ الشمس: ١٤, وقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ الزلزلة: ١, وقوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟﴾ الشعراء: ٩٤, مع الإيحاء بالتكرار الصوتي للحرف القرآني.

(٢٩) الظاهرة الجمالية ٢١٧.

(٣٠) المائدة: ٢٨.

[٣١] ينظر الحديث عن المؤمنين والحديث عن الكافرين في بداية سورة البقرة.

في الحديث عن الكافرين، ثم هذه الألفاظ **(صمٌ، بكمُ، عميٌ، رعْد، برْق)**، والحركات المتلاحقة ذات **الجرس** القوي **(صواعق، ظلمات)** تقرع الأذن بأصداء المشهد المخيف حتى تشترك في الإحساس بما أحسّ به الفكر، وما وقع في القلب.

[٣٢] هود: ٤٨.

[٣٣] إعجاز القرآن للباقلاني ٢/٢٧٧.

[٣٤] ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/٣٤، بدائع الفوائد ٣/١٤٧– ١٤٨، التعبير الفني في القرآن ٦٥.

[٣٥] ينظر: معاني القرآن للاخفش ١/٢٠، معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/٢٣٩، الكشاف ١/٢٤– ٣٤.

[٣٦] الرحمن: ٦٦.

[٣٧] من بديع لغة التنزيل، وينظر: الكشّاف ٤/٤٥١.

[٣٨] ينظر: دلالة الألفاظ ٤٦.

[٣٩] ينظر: بحوث لسانيّة ١٣.

[٤٠] ينظر: الخصائص ٢/١٥٧–١٥٨.

[٤١] القارعة: ١–٢.

[٤٢] دور الصوت في إعجاز القرآن ١٤٣–١٤٤.

[٤٣] بلاغة القرآن ٦٩.

[٤٤] القارعة: ٥–٧.

[٤٥] ينظر: تفسير من نسمات القرآن ٦٥٤.

[٤٦] دور الصوت في إعجاز القرآن، وينظر: الدراسات الصوتيّة ٣١٩.

[٤٧] التكوير: ١٨.

[٤٨] ينظر: الجرس والإيقاع ٣٣٥–٣٣٦، الطبيعة في القرآن ٤٦٦.

(٤٩) دراسات اللهجية ٢٧٧.

(٥٠) الفرقان: ١٨، وقراءة البناء للمجهول هي قراءة أبي جعفر المدني والإمام جعفر الصادق عليه السلام.

(٥١) القمر: ١.

(٥٢) الطور: ٩-١٠.

(٥٣) الانفطار: ١.

(٥٤) تفسير البياني للقرآن الكريم لبنت الشاطي ٨٥/١.

(٥٥) النازعات: ٦-١٤.

(٥٦) البقرة: ١٨٥ وينظر: السبعة ١٢٤، معاني القرآن للفراء ١١٢/١، مشكل إعراب القرآن ٣٢١/١، الكشاف ٣٣٦/١.

(٥٧) ينظر: البنى النحوية ٨٣، منهج البحث اللغوي ٤٣، في التحليل اللغوي ٨٨.

(٥٨) المسد: ٤، وينظر: السبعة ٧٠٠، النشر ٤٤/٢.

(٥٩) النساء: ١٦٢.

(٦٠) البقرة: ١٧٧. وينظر: كتاب سيبويه ٦٢/٢- ٦٦.

(٦١) آل عمران: ١١١.

(٦٢) بديع القرآن لابن أبي الأصبع ١٣٢/١، ١٣٤.

(٦٣) الكهف: ٦٣.

(٦٤) ينظر: روح المعاني ٣١٨/١٥.

(٦٥) الفتح: ١٠.

(٦٦) ينظر: روح المعاني ٩٧/٢٦.

(٦٧) الاحقاف: ٢٠.

(٦٨) معاني القرآن ٥٤/٣.

(٦٩) الشعراء: ٢٢.

(٧٠) معاني القرآن وإعرابه ٦٧/٤، وينظر: مجاز القرآن ٨٥/٢، معاني القرآن للأخفش ٤٦١/٢، معاني القرآن للنحاس ٨٥١/٢، الكشاف ١٠٩/٣.

(٧١) الأعراف: ١٢٣.

(٧٢) معاني القراءات ١٨٦-١٨٧، وينظر: السبعة ٢٩٠، حجة الفارسي ٢٦٠/٢، التذكرة ٤٢٣-٤٢٤

(٧٣) القلم: ١٤.

(٧٤) معاني القرآن للفراء ١٧٤/٣.

(٧٥) آل عمران: ٢٠.

(٧٦) المائدة: ٩٠.

(٧٧) الصف: ١٠-١١، وينظر: معاني القرآن للفراء ١٥٣/٣-١٥٤، معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢١٩/١.

(٧٨) الكهف: ٦٤.

(٧٩) هود: ٤٦.

(٨٠) الزمر: ١٠.

(٨١) الليل: ١٤، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

(٨٢) الفجر: ٢٧-٣٠.

(٨٣) النجم: ١-١١.

المصادر والمراجع المعتمدة

- أسرار التكرار في القرآن الكريم، لمحمود بن حمزة الكرماني، دراسة وتحقيق عبد القادر احمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٧م.
- إعجاز القرآن، للباقلاني أبي بكر محمد بن الطيب، تحقيق السيد احمد صقر، دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٨١م.

- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعي، مؤسسة المختار للتوزيع والنشر، ط١، ٢٠٠٣م.
- بحوث لسانية، د.نعيم علوية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٨م.
- بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزيّة، خرّج أحاديثه أحمد بن شعبان بن أحمد، مكتبة الصفا، ط١، ٢٠٠٥م.
- بديع القرآن، لابن أبي الأصبغ زكي الدين عبد العظيم، تحقيق: د.حفني محمد شرف مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٥٧م.
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د.فاضل صالح السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٠م.
- البُنى النحويّة، تشومسكي، ترجمة: د.يوئيل يوسف عزيز، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٧م.
- البيان والتبيين، لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ١٩٨٥م.
- التذكرة في القراءات، لأبي الحسن الطاهر بن غلبون، تحقيق: عبد الفتاح بحيري إبراهيم، الزهراء للإعلام، القاهرة، ط٢، ١٩٩١م.
- تفسير من نسمات القرآن، غسان حمدون، دار السلام، ط٢، ١٩٨٦م.
- التعبير الفني في القرآن الكريم، لبكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- التفسير البياني للقرآن الكريم، د.عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي)، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.
- تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل)، لناصر الدين بن الخير البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

- التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، سمير إبراهيم وحيد العزاوي، دار الضياء للنشر، عمان– الأردن، ٢٠٠٠م.
- الحجّة للقراء السبعة، لأبي عليّ الفارسي، تعليق: كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، د.غانم قدوري الحمد، مطبعة الخلود، بغداد، ١٩٨٦م.
- دلالة الألفاظ ، د.إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية، ط٥، ١٩٨٤م.
- روح المعاني، لشهاب الدين الآلوسي، إدارة الطباعة المنيريّة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٩٨٥م.
- السبعة في القراءات، لابن مجاهد، تحقيق: د.شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٨٨م.
- سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، شرح وتعليق: عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح، مصر، ١٩٦٩م.
- شرح المفصّل، لموفق الدين بن يعيش، إدارة المطبعة المنيريّة، مصر، د.ت.
- الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، نذير حمدان، دار المنار، جدّة– السعودية، د.ت.
- في التحليل اللغوي، د.خليل أحمد عمايرة، الزرقاء– الأردن، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- كتاب سيبويه، لأبي عمرو عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل، لجار الله الزمخشري، شرح ومراجعة يوسف الحمادي، دار مصر للطباعة، د.ت.
- اللغة العربية معناها ومبناها، د.تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٧٣م.

- مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت.
- المحتسَب، لأبي الفتح ابن جني، تحقيق: د.علي البخدي ناصف وزميليه، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٦هـ.
- مشكل اعراب القرآن، لمكيّ القيسي، تحقيق: د.حاتم الضامن، منشورات وزارة الاعلام، بغداد، ١٩٧٥م.
- معاني القراءات، لأبي منصور الأزهري، تحقيق: احمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.
- معاني القرآن، لسعيد بن مسعدة الأخفش، تحقيق: د.فائز فارس، الكويت، ط٢، ١٩٨١م.
- معاني القراء، للفراء أبي زكريا، تحقيق أحمد يوسف نجاتي وزميله، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٣، ٢٠٠١م.
- معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس، تحقيق: د.يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- معاني القرآن وإعرابه، لأبي اسحق الزجاج، تحقيق: د.عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- من بديع لغة التنزيل، د.إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، سوريا، ط١، ١٩٨٤م.
- من بلاغة القرآن، احمد محمد بدوي، نهضة مصر للنشر والتوزيع.
- منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، د.علي زوين، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٨٦م.

➢ النشر في القراءات العشر، لأبي الخير محمد بن الجزري، تصحيح علي محمد الضباع، مطبعة مصطفى محمد، مصر، د.ت.